الفصل الخامس عشر

غريزة الخوف

الخوف غريزة مشتركة بين الحيوان والإنسان، ويخفف وطأتها على الإنسان ما يتوخاه من طرق أبواب الحيل. ولا يدرك معنى الخوف على حقيقته، من عاش فى المجتمعات المتباينة وأحس بالأمن والأمان. وغالبا يعتمد فى تصويره على ما يرسمه الخيال، أو ما يجود به الكاتبون من وصف المحن التى تفتك بالإنسانية فى الحروب والزلازل والمناجم، وبين ألسنة اللهب وثورة أمواج البحار. ومع أن هذه الأخيلة مؤثرة لا يرسخ أثرها فى الذهن رسوخه إذا أصيب الإنسان بشيء منها وأنجاه طول العمر.

أرادت كاتبة أن تكتب فى وصف الخوف الذى يحسه السارق، ففكرت أن تدخل دكانا، وتتظاهر بالسرقة فتقدمت إلى البائع وأغلظت فى القول، وضايقته فى المعاملة، وأعرضت عن الشراء؛ وبينما هى فى الطريق إلى الباب، تناولت من الأرض سلعة، وما كادت تخرج حتى أدركها الحارس وضبط ما معها، وأوسعها شتما وإيلاما، وسلمها إلى شرطى رافقها إلى قسم البوليس للفصل فى أمرها. فلما مثلت بين يدى وكيل النيابة أدهشه حسن زيها، وجمال وجهها، مع تفاهة الشيء المسروق، فسألها عن التهمة فاعترفت بها، ثم استفسرها الأسباب، فأجابت بأنها ما فعلت ذلك حبا فى السرقة، بل حبا فى درس الوجدان الذى يلازم هذا الموقف.

يتردد على النفس شيء واحد فيكون أحيانا مصدر سرور، وأحيانا مصدر الخوف. فالطفل يرى الكلب اليوم فيقترب منه ويلاطفه، ويراه فى غد فيأى

ويتهيبه. وإذا تساءلنا عن سبب هذا الاضطراب علمنا أنه رأى الكلب لأول عهده مسالما فمال إليه، وعندما أقبل الليل وآن أوان نومه، وألهاه اللعب عنه ولم يمتثل أمر أمه، أمرت الخادم أن تصوت محاكيه نباح الكلب، وأظهر الحاضرون الفزع من سماعه، فذهب مسرعا إلى فراشه وانكمش فى مضجعه ونام. ولما استيقظ صباحا، ورأى الكلب عينه، وسمع نباحه على تلك الصورة التى سمعها ليلا فلا تعجب إذا رأيناه يخافه، إذ الخوف الذى كان كمينا عنده قد أثارته التربية السيئة.

بمثل هذا نعلل الفرق بين الحمام الذى يأوى إلى أبراج صاحبه ويرفرف عليها مستريحا مطمئنا، والحمام الذى يسكن الجهات الأخرى. فالأول استأنس لأن غريزة الخوف عنده كامنة لم يثرها تأثير، فلم يهاجمه أحد ولم يؤذه صياد، عادة ألفها من الإنسان وقد وصاه الله بهذه المعاملة. أما الحمام الآخر فيسمع غالبا دوى البارود المفزع، ويشاهد شبح الإنسان مقرونا به، فتنتبه عنده غريزة الخوف بمجرد رؤية الإنسان، ويفطن إلى أنه يريد الاعتداء عليه فيخافه. أما ذراريه فربما لا تشاهد مثل هذا الاعتداء، ولكنها تحاكى أصولها فى هربها من الإنسان فتخشاه تبعا.

أعراض الخوف:

عند الخوف يحس الجسم وقع قوة عنيفة يرزح تحتها، وتهتز جوانبه من هولها، فيهرع الدم إلى القلب ليثير فى الإنسان الاستعداد لدرء الخطر أو الفرار من وجهه. وتبدو أعراضه فتدل عليه، يمتقع اللون، وترتعد الفرائص، وترتعش اليدان، وتضطرب العضلات، وتتصلب المفاصل، ويتصبب الجبين عرقا، ويقف شعر الرأس، وتتسع الحدقة، ويخفق القلب، ولا يعود التنفس من الأنف كافيا فينفتح الفم.

وكذلك يفعل الخوف فى العقل، فيتكدر صفاء الشرايين، ويغلب النسيان، وتتعطل الإرادة الصالحة، إذ لا تجد فكرا يقظا، ولا عضوا مطيعا، ويستسلم الذهن للخيال المروع، حتى إذا رأى غير شخص ظنه رجلا، وتستولى عليه الوساوس،

ويزل عن مواقف الصواب.

وكثير الخوف يعتدى على المزاج ويجره إلى الهلاك، كما يحصل للمجرمين الذين ينفذ عليهم حكم الإعدام. يقفون بين يدى الجلاد والسياف، وإذا قدم أحدهم للقتل مات الذى يليه من شدة الفزع والجزع.

مثيرات الخوف:

تثور النفس بفطرتها عند سماع الأصوات الشديدة التى تصل إليها من غير انتظار ولا استعداد ولا تعرف لها أسبابا ظاهرة. أصيب محمد على باشا الكبير بصيحة مزعجة من جراء إعدام المماليك فى قلعة مصر، كانت تنتابه أحيانا فيسمع منه زئير كزئير الأسد يتقطع من سماعه نياط القلب. جلس رسام إلى جانبه ليرسمه، ولما سمع هذه الصيحة هلع فؤاده، ومات من شدة الفزع.

وكثيرا ما نرى المتفززين تعروهم رعدة الخوف لأقل صوت أو حركة. وهم الذين قالت فيهم عائشة أم المؤمنين: «إن الله خلقا قلوبهم كقلوب الطير، كلما خفقت الريح خفقت معها. فأف للجبناء».

ومن مثيرات الخوف رؤية المشاهد الغريبة العجيبة المضطربة، كرؤية لص مسلح فى هيجانه، وكجماح حصان انقلبت سحنته ونصب أذنيه وفتح منخريه. رأيت فى أسفارى طفلا يترنح من البشاشة والسرور، وقفته أمه ليطل من نافذة القطار، ولما تحرك اضطرب مزاجه فعبس وبكى بكاء مرا، ولما أدارت وجهه عن رؤية المناظر المضطربة المتجددة سكن جأشه. وكذلك شاهدت طفلا يلعب الخوف بعقله، فعبست ملامح وجهه، لأن حامله اقترب من البحر فكدرت أمواجه المتلاطمة صفاء سروره.

ومنها المباغتة كما إذ حادثنا متكلم على غير انتظار، أو نبح علينا كلب، أو مثل أمامنا شبح غريب الصورة.

ولعلك تقدر ما يعترينا من ألم الرجفة وقد فتح الريح مصراع النافذة فجأة. خطر لى أن أتفقد كيس النقود وقد اعتدت وضعه فى مكان خاص من ملابسي، فلما لم أجده ذهل عقلى وضاع صوابي، وكادت تباريح الحزن تستولى على لولا أنى تحققته فى مكان آخر، والفأر تتصلب مفاصله متى يرى القط أمامه، ويستسلم لعدوه من شدة ما يعروه من وقع الخوف.

ويثور الخوف عند العزلة والجلوس فى الأمكنة المظلمة والجحور والمغارات، لأنها أماكن خلوية . موحشة، أو لأن الظلام يعوق البصر عن رؤية الخونة من بنى الإنسان والضوارى من الحيوان، وقد جاء فى المثل: " الليل أخفى للويل "، وقيل: إذا أقبل الليل استأنس كل وحشي، واستوحش كل إنسي.

ومن مثيرات الخوف توقع الزلل عند ذوى الأمزجة العصبية، فترى من يقف موقف الخطابة أمام الجمهور مرتعد القلب، ذاهل العقل، متلجلج اللسان، لأنه يخشى أن يخيب رجاؤه فى النجاح، أو لا ينطبق على الواقع. ومهما كبرت همة الخطيب، واستجمع الغاية من ابتكار المعانى وذلاقة اللسان، فلا يستطيع أن يقف فى الناس موقفه بين الأصحاب أو بين من اعتاد محادثتهم.

وقد يكون الخوف من ضعف الصحة، ولا يغيب عنك ما يحدثه عند الإنسان الجبان ضعيف العزيمة، وما يتردد على ذهن المحموم من المفزعات فيخيل إليه مزاجه المضطرب صورا من الوحوش الضارية تتأثره، أو صخورا من السماء تنحدر عليه، وتراه يتملص منها فى قلق وحيرة.

يقيس الإنسان عرض الطريق الذى يسير عليه فلا يجده يزيد على نصف متر، ولكنه إذا سار على المشارف العالية أو البحر، يلعب به الوهم ويسوقه إلى موارد الخوف رغم إرادته، فتجده يحتاج إلى ما يستند إليه، وإلا فإنه لا يتمالك الوقوف. ومن ذلك أن شخصا حكم عليه بالإعدام، فشدت على وجهه عصابة، وأعلم أنه سوف ينفذ فيه الحكم ، وبدلا من أن يُعدم ، سُلط عليه رشاشا من الماء الفاتر، فظنه

دما يقطر منه وغشى عليه فمات من تأثير الوهم. وبين ظهرانينا أناس بذروا فى شهواتهم، وقضوا القضاء العاجل على سعادتهم بانغماسهم فى الترف والنعيم، فيحسون بأنهم مرضى، وحينئذ يوسوس لهم الخيال فيحملهم على اعتقاد أن فيهم داء، فيفزعون إلى الطبيب ليفحص عن مرضهم فيستريب، وربما اختلق لهم علة وخوفهم بطشها فيعيشون من هذا الوهم المضاعف فى ذل دائم وقلق مستمر. ولو حسبت من يموت فى زمن الوباء وجدت أكثرهم يلقى حتفه من تأثير الوهم، والوهم من ألد أعداء الإنسان

ومن محدثات الخيال المزعج قراءة القصص، وهى أشد الأمور استرقاقا لذهن الناشئ. وما ظنك بمن يجلس بين يدى أمه أو عجائز البيوت ولا يسمع إلا نوادر العفاريت والجان، وما يفعلونه من ضروب الأذى والحرمان، بلينا بهن فى العهد الأول من طفولتنا، واعتقدنا صدق روايتهن لصغر عقولنا. وإن من يوطن نفسه على اعتقاد أنها من التخرصات والأكاذيب، ثم ينطلق رابط الجأش إلى اختبار مصادرها، لا يجدها إلا كضباب أرسلت إليه الشمس أشعتها فبددته. وقد كفانا المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده مؤنة البحث عن حقيقة هذه الأوهام إذا أسمعنا: أن فى مصر دربا يدعى حيضان المسلى بين الأزهر والدرب الأحمر، اشتهر بالمخاوف، وذهبت فيه أحاديث الناس مذاهب شتي، لضيقه وظلامه وإهمال وسائل الأمن فيه؛ حدثنا أنه عقد رهانا مع طائفة من إخوانه لاختراق هذا الدرب ليلا، وما بدأ بالسير حتى انتابه الوهم، وبدت عليه أمارات الخوف، وكان كلما صور له الخيال شبحا مفزعا تجلد وأيقظ فكره وأحيا عزيمته، وسل سيف إرادته، واندفع إلى حجب الوساوس فمزقها، ومر فى سبيله كالسهم من الرمية. وبينما كان سائرا سمع غطيط نائم فتعقب الصوت واسترشد به إلى مصدره، وإذ هو غلام كان يلعب مع إخوانه الصبيان وغلبه النوم فأيقظه، وتقدم به الأستاذ إلى من حضر فى الطرف الآخر من الدرب، وقص عليهم من أمره علما، وصوب لتلك الإشاعة

من همته سهما، وأثبت لهم من التجارب عزما وحزما، واقتلع من نفوسهم ضلالة ووهما.

منافع الخوف:

الخوف المعتدل من أكبر عوامل الإصلاح، والعاقل يجعله كالنار يتدفأ بها ولا يلمسها، وهو الذى يحمل النفس على التريث والأناة، ويثير المواهب الفكرية لتمحيص الأمور، وقد ورد: " من خاف سلم ".

فإذا دب دبيب الخوف فى إنسان على أثر رؤية حيوان ضار، ففر من موقفه إلى مواطن السلامة، ضنا بحياته أن يعبث بها الشر، أو إذا دهمته النار فى منزله فثبت أمامها رابط الجأش يفكر فى وسائل النجاة، ودفع غائلة الحريق، حمدت مغبة هذا الخوف الذى نبه القوى الفكرية على خطر الموقف والاستعداد له، ودرء مخاوفه بما يستطيع من الإقدام والنشاط.

رأس الحكمة مخافة الله:

وخوف الله تعالى رأس الحكمة، لأنه يضبط النفس الجامحة ويكفها عن مباشرة الاعتداء، فى غيبة الرقباء، وكفى بالله رقيبا. وماذا عسى أن يكون خطر الملحدين على المجتمع الإنسانى وقلوبهم مجردة من هذا الوازع.

فى الخوف قوة روحانية تكفل تحرى الإصابة والسلوك بالإنسان فى مسالك البحث والتنقيب، لتخبر الأسباب الراجحة التى ترشده إلى السعادة، على أنه قد يبذل ما لا قبل له بد من وسائلها، ثم تفلت منه الغاية المنشودة، ويضل حيث يريد الفوز. ذلك لأن الأسباب المعقولة التى جال فكره فى اختيارها، ربما لا تكون أسبابا حقيقية فى الواقع. فقائد الجيش يرسم خطة الهجوم التى يتوسم فيها النجاح فى ساحة الحرب، ولكن عدوه ربما حسبها من قبل - على سبيل توارد الخواطر - وأعد لها العدة، فيتبدل الأمر، وتسوء العقبى.

لذلك جاءت مشروعية الاتكال على الله بعد إجادة الأسباب. وهذا الاتكال برهان على عجز الإنسان وقصر عقله فى الإحاطة بالحقيقية.

فحسبه أن يزاول الأمر بعد عرض أسبابه على محك الفكر، ثم يقف بين طريقى الأمل بالنجاح والخشية من الخيبة، ويضرع إلى الله تعالى راجيا حسن التوفيق، إلى أقوم طريق.

رأينا من الناس من اندفع بلا عقل فى سبيل المضاربة، ودخلها من غير حساب لعواقبها، فربح وخرج من السوق ظافرا محسودا. ورأينا منهم من يدخل السوق ويزن الأمور بميزان العقل، ويحكم عليها حكما منطقيا يقينا، فيحجم عن الشراء، مع أن الواقع ربما لا يتفق مع رأيه، فأمثال هذه الحوادث لا يصح القياس عليها. ولو تأملت معنى الحياة، وتفهمت ما تحتويه من البيان، وما تدلى به من الحجة، لعرفت أن الله عنده مفتاح الغيب، وأننا لا نملك من أمورنا إلا أن نزنها بعقولنا، ونماشى الدليل ونستند إليه، ونعول عليه، فإذا عادى القدر مسعانا، فلا حول لنا ولا حيلة. إن الذى يستسلم للمضاربة إذا صحت معه الأحوال وجرت معه الأمور فى طريق غير معقول، يوشك أن يرد منها موردا يقضى على ماله، وما أحكم المثل المشهور. " ليس المخاطر محمودا وإن سلم ".

obeikandl.com